العرب
الجمعة 2019/11/01
السنة 42 العدد 11515

ليلة ناقمة على إيران في ساحات العراق

كرم نعمة
كاتب عراقي

علينا أن نعترف بهزيمتنا أمامهم، نحن الذين نكتب أكثر مما نتحرك! الخيبة التي اكتنفتنا على مدار عقد كامل منذ احتلال العراق، لم تكن هزيمتهم بقدر ما كانت هزيمتنا، فأولئك الفتيان جيل التوك توك يصنعون ما عجزت عنه كل التنظيرات، لأنهم تركوا الكلام تذروه الرياح كالأوراق الواهنة وتحركوا إلى الميدان. لقد صنعوا التاريخ الذي يتوقون إليه من مكان الإحباط والغضب.

جازفت الأحزاب الدينية الفاسدة بعد دفعها إلى حكم العراق بفقدان قلوب وعقول عدة أجيال ليست من الشباب فحسب، وهي تعول على الخرافة وتتخذ البغضاء أداة للصراع من أجل التفرقة. فيما المفاجأة كانت من جيل ولد في كنفها وخضع لدعايتها الرثة، إلا أنه مثل قدر الضغط الكاتم الذي انفجر بوجهها، ذلك التعبير الوحيد الذي يفسر حيرة الحاكمين في بغداد اليوم، لأنهم على مدار أكثر من عقد كانوا يتشبثون بالوهم على اعتباره حقيقة قائمة وباقية، فيما الواقع يقول إن كل من وصل إلى المنطقة الخضراء منذ عام 2003 لم يكن سوى نتاج لحكومة افتراضية لا تستطيع في الواقع أن تحكم أكثر مما هو مسموح لها.

لا يوجد في العراق اليوم خاسر غيرهم، الطائفيون ورجال الدين، وسياسيو الزمن الشاذ ومنظرو الرثاثة السياسية، والمنتصر الوحيد هو جيل صنع حياة كان يراها على الشاشات الصغيرة لكنها حياة مستبعدة عن بلاد مهيأة لأن تكون مثالا للانفتاح والاعتدال والتحضر.

> لا يوجد في العراق اليوم خاسر غيرهم، الطائفيون ورجال الدين، وسياسيو الزمن الشاذ ومنظرو الرثاثة السياسية، والمنتصر الوحيد هو جيل صنع حياة كان يراها على الشاشات الصغيرة لكنها حياة مستبعدة عن بلاد مهيأة لأن تكون مثالا للانفتاح والاعتدال والتحضر

لقد كتب أحد المتشائمين إبان الصراع الطائفي بعد احتلال العراق، أن الأميركيين لم يفعلوا شيئا سوى رفع غطاء "السبتتنك" فظهرت حقيقة المجتمع العراقي! إلا أن ذلك الكلام وإن حظي بقبول ما في وقت شاذ فإنه لا يمثل الحقيقة كلها، لأن ما يحدث في ساحة التحرير ومراكز المدن العراقية يظهر أن العدو الفعلي للمتظاهرين في الواقع هو من نشر عفونته الطائفية، بوصفها واقعا جديدا للعراق. لذلك يغطي جيل التوك توك الباهر وجهه، ليس تجنبا لدخان الغاز المسيل للدموع وحده، بل لأن رائحة أولئك القاطنين في المنطقة الخضراء أكثر عفونة من القاتل جان باتيست غرونوي في رواية العطر لباتريك زوسكيند.

لا يمكن أن تكون المخاطر والخسائر بالنسبة إلى مستقبل العراق والطريقة المعيبة التي يتفاعل معها العالم للأسف مع تظاهرات العراق المستمرة، أكبر مما هي عليه الآن.

إذا انتصر أولئك الشباب وهم يصنعون من كل جملة تطلق في ساحات المدن المنتفضة على الطبقة السياسية والدينية الفاسدة هاشتاغا وأنشودة، ونجحوا في صنع قدرهم من أجل مستقبل أكثر ديمقراطية للعراق، فإن ذلك يشير إلى أن العالم برمته الذي اعترف متأخرا بتدمير بلاد ما بين النهرين تحت مسوغ كذبة كبيرة، مستعد للتكفير عن ذنوبه تجاه العراقيين منذ فرض طوق الحصار الاعمى حتى خذلانه لانتفاضة الشباب. لقد فشلت كما لم تفشل على مر التاريخ الجملة المشتركة التي أطلقها جورج بوش الابن ووزير خارجيته دونالد رامسفليد إبان احتلال العراق بأن الحرب تجلب الحرية.

كان الوضع قبل سنوات بالنسبة إلى كثيرين ميؤوسا منه، إلا أن هلع المرشد الإيراني علي خامنئي في كلامه الأخير حيال تظاهرات لبنان والعراق، والحيرة التي تكتنف الميليشيات والفصائل العراقية العاملة تحت إمرة قاسم سليماني، تقول "إذا احترقنا، أنتم ستحترقون معنا" كانت إحدى صرخاتهم الحاشدة، في ليلة عراقية ناقمة من إيران شهدتها ساحة التحرير أمس بعد ساعات من كلام خامنئي وترديد أتباعه من ببغاوات المنطقة الخضراء.

في النهاية لقد صُنع جيل لم يحظ بحياة طبيعية ولا تعليم متميزا ولا رعاية ولا فرصة عمل، جيل رأى كرامته مهدورة في وطنه، لذلك رفع شعاره الألمعي "نريدُ وطن". كان هناك صراع أجيال في ثورة الشباب اليوم لا خاسر فيه من العراقيين، لأنهم تركوا سنوات الطائفيين خلفهم بعد ثورة تشرين حيث تغدق عليهم السماء بنثيثها المنعش.

لقد نشرت فيديو قصيرا على حسابي على تويتر في الليلة العراقية الناقمة على إيران أمس، عن مجموعة من الفتيان الذين حرضوا جدهم الطاعن في السن على النزول معهم إلى ساحة التحرير للتظاهر. هذا الجد كان من قبل يرفع عصاه محذرا إياهم من الخروج، ويذكرهم بمن فُقد من أبناء العائلة قائلا ليست لدينا قلوب قادرة على تحمل دماء مهدورة جديدة، لكن صراع الأجيال انتصر للشباب عندما أقنعوا جدهم على التظاهر معهم، وكان بينهم شيخا بعقاله العراقي وسط مئات الآلاف في ليلة عراقية ناقمة على إيران وعلى فصائلها المختبئة لحد الآن.

كانت ليلة عزف للنشيد العراقي الوطني الرافض لكل الطبقة السياسية الحاكمة، على أيدي عازفين يرتدون أقنعة واقية من الغازات ويلفون رؤوسهم بقطع سوداء، فيما العراق برمّته يرى الأمل قد عاد مجددا.

بغداد- بيروت: لماذا تقلق طهران؟

محمد قواص
صحافي وكاتب سياسي لبناني

شيء طارئ حصل في لبنان والعراق أربك كل الخرائط التي كانت تُرسم في الكواليس من أجل تعبيد الطريق باتجاه طاولة حوار تبني اللبنات الأولى لاتفاق جديد مع إيران. حظيت الورشة التي تبرّع رئيس وزراء باكستان، عمران خان، في تمثيلها بتواطؤ إقليمي دولي. بدا أن العواصم آثرت الصمت وترك المداولات الخلفية تعمل دون أي تورط رسمي في المآلات التي ستصل إليها.

بقيت واشنطن تتحدث عن ضغوط قصوى من أجل مفاوضات مقبلة تفضي إلى إنتاج اتفاق جديد. امتنعت السعودية عن توجيه اتهام رسمي لإيران في الوقوف وراء الاعتداءات على منشآت أرامكو على أراضيها قبل أن ينتهي التحقيق الدولي من إعلان نتائجه. روجت طهران لزيارات تقوم بها وفود إماراتية، فيما، وبقدرة قادر، توقفت منابر إيران عن شتم الرياض ودول الخليج، تاركة للرئيس الإيراني حسن روحاني ووزير الخارجية محمد جواد ظريف نظمَ قصائد حول خصال الحوار، والإفاضة في مدح السلم والتعاون بين دول المنطقة.

في روحية الانجراف نحو خيار الحوار ما قيل إنه قناعات دولية، صدر أهمها من واشنطن وإدارة الرئيس الأميركي دونالد ترامب، حول عدمية شنّ حرب ضد إيران.

جاء أيضا أن مأزق الحرب في اليمن أنضج توجها دوليا إقليميا للبحث عن منافذ للحل تتجاوز قواعد الحرب الدائرة منذ سنوات.

في ذلك أيضا أن ما تمتلكه إيران من نفوذ في العراق بات من التماسك بحيث لا ينافسه نفوذ مرتجل يسعى العرب إلى تجريبه هناك، وأن ما تمتلكه طهران من نفوذ في لبنان يستدعي مقاربة جديدة غير تلك المعتمدة.

لاح يأس من سياسة العقوبات والعزل، أو التعويل على تحولات شعبية داخل إيران أملا في إحداث تحولات لتدجين قرارات النظام.

وفق تلك المعطيات بنتْ واشنطن والعواصم المعنية مشروع الاتفاق الجديد المؤمّل أن يتم الاهتداء إليه. لكن تطورات قلبت تلك القراءة البليدة.

أربك الحراك الشعبي في لبنان والعراق كل الأوراق التي تمتلكها إيران في البلدين، والتي وجب أن تحتفظ بها، وألا تقدم أي تنازلات بشأنها إلا على طاولة المفاوضات.

ووفق الثابت في ما استنتجه العالم من نفوذ تمتلكه إيران في الشرق الأوسط، لم تدفع واشنطن وحلفاؤها بأي موقف يُشتمُّ منه دعم للمتظاهرين في العراق، أو أولئك المنتفضين في لبنان والمنتشرين من شمال البلد إلى شماله.

تعتبر الولايات المتحدة ودول الاتحاد الأوروبي أن ما يجري في العراق هو شأن إيراني داخلي. الغضب في العراق يأخذ طابعا شيعيا، يكاد يكون حصريا، ضد المنظومة السياسية التي تهيمن عليها أحزاب السلطة الموالية لطهران.

لا تعوّل العواصم الغربية على أي تغيير يمكن لـ"شارع" أن يُحدثه في العراق داخل طبيعة العملية السياسية التي تديرها طهران منذ الغزو الأميركي لهذا البلد عام 2003. والأصح أن هذه الدول لا تحبّذ حدوث أي تغيير جذري يستدعي إعادة تموضع مكلفة ومرهقة تجاه بلد اعتادوا، من البوابة الإيرانية، مقاربته وإجادة التعامل مع مفاتيحه.

سكت العالم على نحو مريب حيال الحراك الشعبي الذي يجتاح لبنان هذه الأيام منذ 17 أكتوبر الماضي.

ثرثرت العواصم الكبرى كثيرا حين خرج اللبنانيون في 14 مارس 2005 مطالبين بخروج القوات السورية من لبنان. حينها ظهر تحالف "14 آذار" ينادي بلبنان سيدا مستقلا، مبشرا بالخروج من عصر الوصاية السورية الذي حكم البلد برعاية دولية منذ عام 1976. سحبت دمشق جندها. هلل العالم لهذه الخطوة، ثم صمت وأصابه شلل، حين راحت موجة الاغتيالات تزيل قادة الحراك السيادي، وحين اجتاحت قوات حزب الله العاصمة والجبل في ما أطلق عليه "غزوة 7 أيار".

هذه المرة لم تقل العواصم كلمتها في حدث تاريخي لم يسبق له مثيل منذ استقلال لبنان. لم يطلب المنتفضون رعاية دولية، وربما أنهم لا يثقون أصلا بأي رعاية مزعومة تدير الظهر خدمة للمصالح العليا.

قيل إن انخراط الرئيس الأميركي السابق باراك أوباما في ورشة التحضير للاتفاق مع إيران حول برنامجها النووي، دفع واشنطن لترك لبنان لحزب الله، والتخلي عمن اتهموا بأنهم حلفاء واشنطن في لبنان لمواجهة مصيرهم الأسود. وما يقال هذه الأيام إن تلك المداولات الخلفية التي تحيك نسيج اتفاق جديد بين واشنطن وطهران، قد يكون سببا لعدم إعارة كثير اهتمام لشأن لبناني قد يُدرجُ أيضا في خانة الشأن الداخلي لإيران.

بيْدَ أن الشعوب ترسم الخرائط. والأمر ليس مقولة رومانسية بقدر ما هو حقيقة ترتبك واشنطن وباريس ولندن وبرلين تجاهها، قبل أن ترتبك طهران. وفيما قد تعتبر العواصم أن شؤون العراق ولبنان هي شؤون إيرانية تقاربها طهران، تُظهر الأخيرة وفق تلك المسلّمة الخبيثة، عزما على عدم إسقاط هذا المكتسب المعترف به ضمنا لدى دول العالم.

تعرف إيران أن أي اتفاق جديد مع العالم سيسلّط المجهر على ملفات أخرى تتجاوز ملف البرنامج النووي.

تعرف أن الضغوط التاريخية التي تمارسها الولايات المتحدة، وبصمت يشبه الرضا من قبل دول يفترض أنها صديقة مثل الصين وروسيا، سيجبرها على خسارة كثير من المساحات داخل خارطة النفوذ التي تمتلكها في المنطقة.

حين زار رئيس وزراء باكستان طهران صدر عن المرشد علي خامنئي، كما عن بقية المنابر القيادية، ما يفهم أن طهران ترى أن في اليمن مفتاح الحل الشامل. وفي ذلك أن إيران تلوّح بمقايضة اليمن بالتسليم بنفوذها في مناطق أخرى.

لا تسمح إيران بالمسّ بمكتسبها الكبير في العراق. العراق بوابة إيران الكبرى، وسقوط العراق وسحبه من منظومة نفوذها هو سقوط للنظام الإيراني برمته.

لن تتخلى إيران عن نفوذها في العراق، وهي التي قال أحد منابرها يوما إنها أصبحت إمبراطورية عاصمتها بغداد. تعتبر طهران أن العراق خارج ملفات أي حوار بينها وبين واشنطن، وهي لن تتخلى للعراقيين عما قدمته الولايات المتحدة لها لحظة إسقاط نظام صدام حسين، وهي لن تتهاون في نصر حققته على العراق بعد هزيمتها في الحرب ضده قبل 15 عاما.

بيد أن لبنان أكثر تعقيدا بالنسبة لطهران. يحظى البلد باهتمام دولي عام لا يسلّم بوصاية طهران على قراره. ثم إن تعددية هذا البلد الطائفية تجعله لقمة يصعب هضمها داخل أدبيات السياسة في دولة الولي الفقيه وفي أبجديات العلاقات الدولية.

ويتضح أن مستقبل نفوذ إيران في سوريا محدود الطموح، ولن يتجاوز القواعد التي تضعها روسيا بالتواطؤ الكامل مع العواصم الغربية.

قد تكشف سلة التفاهمات التي تُعدّ أن لبنان هو شأن يهمّ حزب الله أكثر من كونه قيمة حياة أو موت بالنسبة لإيران. والأرجح أن طهران تسعى لأن يقبل بها شريكة داخل الفسيفساء اللبناني، ذلك أنها لا تستطيع ومن غير المسموح لها، محليا وإقليميا ودوليا، أن تحكم البلد من خلال حزب الله في لبنان.

على هذا تبدو إيران مستشرسة بالدم في الدفاع عن مكتسبها العراق، تاركة للقمصان السود المشاغبة بسوقية مقرفة على حراك عابر للطوائف في لبنان مخترق للبيئة المفترض أنها حليفة لإيران.

طهران تشعر بقلق يضاهي وربما يزيد عن أمر العقوبات. ولا عجب أن تدفع إيران بمرشدها ليقتحم بيوت العراقيين واللبنانيين ويقول "الأمر لي".

> تبدو إيران مستشرسة بالدم في الدفاع عن مكتسبها العراق، تاركة للقمصان السود المشاغبة بسوقية مقرفة على حراك عابر للطوائف في لبنان مخترق للبيئة المفترض أنها حليفة لإيران. طهران تشعر بقلق يضاهي وربما يزيد عن أمر العقوبات